فى العصر الفاطمىّ

الفكاهة السياسية

لا نصل إلى العصر الفاطمى حتى تتسع روح الفكاهة فى شعر الشعراء، إذ أخذوا يرصدون بها كثيرا من الحوادث السياسية. وقد كثر القول بين الناس عن الفاطميين ونسبهم وهل ينسبون حقا إلى فاطمة الزهراء أو لا ينسبون، ونجد شاعرا ساخرا يتسرب من خلال هذا الشك إلى تأليف مقطوعة، بلغت به جرأته أن رمى بها على منبر المسجد الجامع يوم الجمعة، فلما صعد العزيز ثانى خلفائهم تناولها، فإذا فيها:

إنا سمعنا نسبا منكرا ... يُتْلَى على المنبر فى الجامعِ
إن كنت فيما تدَّعى صادقا ... فاذكرْ أبا بعد الأب الرابعِ
أو فدَعِ الأنساب مستورةً ... وادخلْ بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشمٍ ... يقصُر عنها طَمَعُ الطامع

وهذا تهكم شديد، إذ يطلب إلى العزيز وأهله أن يدخلوا فى دوائر النسب الواسع إلى آدم ويتركوا دائرة النسب الضيق إلى بنى هاشم. وكان المصريون يتندرون بمثل هذا الشعر. وتقدم شاعر ثان فألقى على المنبر فى يوم آخر من أيام الجمعة رقعة كتب فيها:

بالظلم والجَوْر قد رضينا   وليس بالكفر والحماقهْ
ان كنت أُعْطيت علم غيبٍ   فقل لنا كاتب البِطاقهْ

ولعله كان يسخر بذلك من الخليفة الحاكم وترهاته وما كان يدعيه من علم الغيب بل من الألوهية، إذ كانت له شيعة تقول هو ربهم الأعلى!. ولم تقتصر هذه السخرية السياسية على نسب الفاطميين وسلوكهم، بل اتصلت أيضا بإدارتهم وما كان من توظيفهم لليهود فى المناصب الكبرى، فقد احتج المصريون على ذلك بصور لاذعة، فمن ذلك قول بعضهم:

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا   غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ   ومنهم المستشارُ والملك

ومازال المصريون يعنِّفون الفاطميين بمثل هذه القطعة حتى أبعدوا اليهود عن أعمال الدولة ودواوينها وكشفوا غُمَّتهم عن صدرها.

الفكاهة الاجتماعية

وهذه الفكاهة السياسية كان يرافقها فكاهة اجتماعية واسعة، وقد كثرت حينئذ مجالس الأدب وكثرت المطارحات والنوادر، وكثر من يحاولون أن يضيفوا إلى طنبور الضحك نغمة بل نغمات، وكان من آثار ذلك أن اتسع النبز بالألقاب، فنجد شاعرا ينبز بالجهجهان وثانيا يلقب بشَلَعْلع، وثالثا بالكاسات، ورابعا بالوضيع، وخامسا بالنسناس، وسادسا بابن مكنسة. وكان ماجنا، يظهر الفقر والتصعلك، وله يصف قبح منزله وضيقه وقذارته وأن الشمس لا تدخله:

لىَ بيتٌ كأنه بيت شعرٍ　　لابن حجاج من قصيدٍ سخيفِ
أين للعنكبوت بيتٌ ضعيفٌ　　مثله، وهو مثل عقلى الضعيف
بقعةٌ صدَّ مطلعُ الشمس عنها　　فأنا مذ سكنتها فى الكسوف

وفى كلمة الكسوف تورية واضحة إذ أراد بها الخجل لا كسوف الشمس المعروف. وأراد مرة أن يصور كبر سنه وما أصابه من رجفة الشيخوخة، فألف هذا البيت وهو من قطعة فكهة طويلة:

قـد كَبِرْ بِـرْ بِـبِرْ بِـبِرْ　　تُ وعـقـلى إلى وَرا

وواضح أنه ارتعش أثناء نطقه لكلمة كبرت، فألف من رعشته الشطر الأول دالا على ما أصابه من ضعف وشيخوخة.

ابن قادوس الدمياطى

وربما كان ابن قادوس الدمياطى كاتب الإنشاء فى أواخر العصر الفاطمى أهم شاعر فكه عرفته مصر الفاطمية، فقد روت له كتب الأدب طرائف كثيرة من فكاهاته، وهى فكاهات فيها لذع وتهكم، فمن ذلك تهكمه بشاعر أسود وكان صديقا له، ومما قال فيه:

إن قلتَ من نارٍ خُلقـ ـتَ وفُقْتَ كل الناس فهما
قلنا صدقتَ فما الذى أطفاك حتى صرت فَحْما

وقال فيه أيضا:

ذو عارضٍ كالغراب لونًا وشاربٍ مثل ريشِ بَبْغَا

وكان ابن قادوس ماهرا فى استخدام مثل هذه التهكمات، وما يتصل بها من سخرية. وكان يتحول أحيانا هاجيا هجاء مرا فلا يستحى ولا يخجل. ومن نظيف هجائه:

وليس كلاما ما يقول وإنما يجيب الصَّدَا من رأسه من فراغهِ

وهذا إقذاع فى الهجاء، كان لا يقوله حتى يدور على كل لسان فى عصره، لما يحسن فيه من تسديد السهم إلى ضحيته، وله فى وصف بعض المنافقين فى زمنه:

حـولـه اليـوم أنـاسٌ كـلهم يُـزْهَـى بِـرَائِـهْ
وهْـو مثـل المـاء فيهم لـونـه لـون إنـائـه

وكأنه أراد أن يسلط على هذا المنافق نورا يفضحه، فلا يعود إلى نفاقه أبدًا.

دعايات وتوريات

فى كل جانب من جوانب الشعر لهذا العصر نجد صورا من هذه الفكاهات الساخرة، كما نجد صورا من الفكاهات الخفيفة التى لا يراد بها إلى أكثر من الدعابة والمزاح، كقول شاعر يسمى الجليس بن الحباب يشكو طبيبا تعهده وهو محموم ولم يشفه دواؤه، فقال متندرا عليه:

طبيبٌ طِبُّـه كغرابِ بَـيْنٍ يفرِّق بين عـافيتى وبينى
أتى الحمَّى وقد شاخت وباخت فردَّ لها الشبابَ بنسختين
ودبَّـرهـا بتـدبـيرٍ لـطيف حكاه عن سِنانٍ أو حُنَيْن
وكانت نوبةً فى كل يومٍ فصيَّـرها بحـذقٍ نـوبتـين

وهو يشير بالنسختين إلى وصفته أو دوائه وأنه كان ورقتين يتعاطى ما فيهما. وعرض لادعائه وما يزعمه من أنه تلقن تدبير دوائه عن شيخين من شيوخ الطب فى العصر العباسى هما سنان بن ثابت وحنين بن إسحق. وكانت الحمى تزوره مرة كل يوم

فأصبحت تزوره بدوائه مرتين. وكل ذلك يمزح به الشاعر فى خفة وبدون ألم أو إيذاء.

وأكثر الشعراء فى هذا العصر من لعبة التورية، على نحو ما مر بنا عند ابن مكنسة، ويقول شاعر آخر من الشعراء لهذا العهد فى زمار:

وزامرٍ يكذب فيه عائبُـهْ تكثر من صنعته عجـائبُهْ
يحجب صَبْرَ المرء عنه حاجبُه فيشكر الشاربَ منه شاربُه
كأنما ناياتهُ ذوائبُهْ

وواضح أنه ورَّى فى حاجب وشارب وذوائب. وأشرنا من قبل إلى أن المصريين القدماء عرفوا هذه اللعبة من لعب الفكاهة. ولعل ذلك يفسر لنا كيف أن مصر هى التى سبقت بلاد العالم العربى إلى إذاعتها فى الأدب شعره ونثره، وظل لها فيها طابع الخفة والرشاقة، فقد مرنت على إتقانها من قديم الأزمنة، وكأنما لقن الآباء أبناءهم فى لغة الضاد هذا الحس الدقيق الذى يعرف كيف يستغل المعنيين المختلفين لكلمة واحدة، ويبرز ذلك فى شكل يصيب السامع بشىء من الذهول، فيضحك، لترقبه شيئا حدث عكسه.